صدى ونور ودموع

ديوان للشاعر حسن كامل الصيرفى

عرضه ونقد الأستاذ سعيد حمزة مكرم المحامى

فى مطلع هذا القرن ، اتجه الشعر العربى فى طريق نموه وتطوره اتجاهات متباينة ، تميز كل منها بطابعه العام ، وسماته المحددة ، حتى ليمكن مع شىء من التجوز ، أن نطلق على بعضها مذهباً أو مدرسة ؛ كمدارس الديوان والمهجر وأبولو .

ويعنينا — هنا — أن نعرض للخطوط العريضة والعامة لجماعة أبولو كمدرسة أو كمذهب ، أو بالأقل كاتجاه فنى ، استقى من نبعه ، وتدفق مع تياره الشاعر حسن كامل الصيرفى ، حتى نستطيع على هدى هذه الأضواء أن نمضى مع الشاعر فى رحلته المثيرة ، عبر عالمه أو عبر ديوانه (صدى ونور ودموع) !

يقول الأستاذ مصطفى السحرتى — وهو أحد أبناء جماعة أبولو النابهين : (. . . وقد اختلف الكتاب والنقاد فيما إذا كانت هذه الجماعة مدرسة لها مذهب ، والذى أراه أنها كانت مدرسة جديدة تدين بالمذهب الفنى ، وإن اختلف المنضمون إليها فى المزاج ، وتفاوتوا فى الثقافة ، كانت مدرسة متمردة على شعراء التقليد ، وعلى شعراء الفكرة ، متمردة على الزعامات الأدبية ، وعلى الأسماء الجهيرة ، وقد جمعتهم الموهبة الأدبية ، ونهلوا من آثار الفن الصافية ، كما جمعتهم السماحة والحرية والطلاقة وروح الجدة والاصالة ، ووحدتهم الفكرة ، فكرة الإعراب عن نوازعهم ، وخلجات نفوسهم فى إخلاص وصدق ونضارة وإشراق ، لا عهد للعربية بها ، فكان لهم شعرهم العاطفى والوجدانى الجديد الذى لم تعرفه جماعة الكلاسيكية الجديدة من أمثال شوقى وحافظ ، ولا الشعراء العقلانيين من أمثال العقاد والمازنى وغيرهم) .

وقد عرف شعر مدرسة أبولو بخصوبة نزعاته العاطفية والتأملية والاجتماعية والإنسانية ، ويقول الأستاذ السحرتى : إن شعر حسن كامل الصيرفى حافل بشعر التأمل ، وهذا حق ، نضيف إليه حقاً آخر — فى نظرنا بالأقل — هو أن شعر التأمل عند صاحب (صدى ونور ودموع) من أجود إن لم يكن أجود شعر الديون !

والإنسان المتأمل عادة ، يتروى فى تعبيره ، كما يتروى فى تفكيره فتنساب كلماته

هادئة عميقة ، وأحياناً هامسة ، وهكذا يفعل حسن كامل الصيرفى فى تأملاته حتى لكأنه قد خلا إليك يحدثك ويناجيك !!

فى قصيدة « رجع الصدى » يعانى الشاعر من تدال بنات الخيال !! وقد أوشك أن « يطوى الصباح الحلم » وتحس كأنه يشكو إليك أنت حزنه وبثه !!

فى أبعد الأعماق من نفسى
خواطر تهفـــو إلى حمى
وكلما حامت على كأسى

ثارت عليها نوبة من كلال فأغرقتها فى خضم العدم
وأورثتنى حقبة من ملال وطوحت بى فى فيافى السأم

حالة نفسية هى فى ميزان الشعراء محنة !! ترى كيف يواجه شاعرنا مثل هذه الأزمة !!

غسلت بالصمت خداع الدنى
وجزت بالصمت سراب المنى
وعدت منـــه قانعاً مؤمنا

والصمت يوحى سحره بالجلال ويغمر النفس بعذب النسم
فارجعى لى يا عذارى الخيال صدى لحونى من وراء السدم

وقد يجنح التأمل بالشاعر إلى عوالم مليئة برؤى ومشاهد ، قد تأبى على اللغة المألوفة ، وإذن فلا سبيل إلى إدراكها إلا بالرمز ، ففى قصيدة (الليل) يستنهض الشاعر بلبل الوادى — وهو يعنى نفسه — فالربيع الطلق قد آب ، وفى موكبه الزهر والنسيم والعطر والحب !!

فعلام الصمت والحزن ووجه الأرض يضحك ؟!

ولكن الشاعر أو بلبل الوادى يؤثر العزلة فى وكره على أن يضرب بجناحيه فى فضاء الكون العريض ، وما أضيق كون :

جدول الرحمة فيه أوشك الآن بغيض
نضبت منه الأمانى بعد أن كانت تفيض
أنا إن غردت أو نوحت هل يغنى القريض ؟

وهكذا يرفض البلبل أن تفتنه مظاهر الربيع المتألقة على وجه الطبيعة عن جوهره ولبابه .

ما الربيع الحق إلا خفقات فى الضلوع

وتعرض قصيدة (موجتين) للصراع الأبدى بين الخير والشر ، (موجتان) لغير ما سبب تآمران على حياء شيخ !!

هادىء هانىء الفؤاد رضى يبذل العمر بين كدح وكد

❋ ❋ ❋

صورة للحياة فى كل آن هزلها ينطوى على شرجد
روعتها الخطوب فى كل يوم بالعداء الأثيم من كل وغد
عبثا تصلح النفوس وفيها بذرة الشر وانتواء التعدى

❋ ❋ ❋

وفى قصيدة (غيرة) وقصيدة (عندما تحترق الفراشة) نجد ألوانا من التأمل الزاخر بالومض والكشف وتحسس الأعماق !!

وديوان (صدى ونور ودموع) حافل أيضا بالشعر الغزلى والعاطفى ، تقرأه فتحس أنك أمام شاعر كبير ، يمتعك بصوره الجميلة المجنحة ، ويطربك بإيقاعه العذب الملهم ، ومع ذلك فشعر الديوان الغزلى أو العاطفى لا يستطيع أن يقنعك بأن الشاعر حسن كامل الصيرفى قد عانى تجربة الحب فى صدق وعمق !!

وقد راجعت إحساسى هذا أكثر من مرة فأصر على أنه يفتقد فى غزله صدق الانفعال وحرارة التجربة !! وكم كنا نتمنى لو أن لهب الحب قد مس شغاف هذا القلب الكبير ، إذن لزاد ديوانه إشراقا على إشراق ، وحياة على حياة !!

وحسن كامل الصيرفى — بعد — شاعر مرهف الحس ، متوفز المشاعر ، لا يكاد يرى امرأة جميلة حتى يسرع إلى ريشته ليصور مفاتنها على أنه مع ذلك لا يكاد تتعرى أمامه (ساقان) حتى يغضى حياء ليحلق خياله بعيداً عن « الأرض » مع أحلامه . . أحلام شفافة لا غليظة كتلك التى تلغ فيها غرائز بعض شعراء هذه الأيام !!

أساقان هاتان أم موجتان
من السحر فوق الثرى تخطران

لخطوهما فى رحاب الزمان
رجيع الصدى لا رق الأغانى
هما فتنتان هما روعتان
هما موجتان هما آيتـــان

بل إن المرأة المتجردة الراقصة مع الأمواج على الشاطىء ، لا تلهب فى الشاعر غرائزه بقدر ما تلهب خياله ! ! خيال شعراء لا خيال مراهقين ! !

هدأ الموج فاسبحى وسجا البحر فامرحى
أنت فى الماء رقصة حرة فوق مسرح
ضجة البحر عندما تتهادين تمحى
هو شمشون فاهزئى فى هـــواه المبرح
بالقوى منه واسبحى كالخيـــال المجنح

❀ ❀ ❀

وحين يتاح للشاعر الحي أن ينتصر على حيائه فيقبل امرأة تأخذه نشوة «روحية» !! تذهله عن واقعه :

نسيت اللهو والشيطان والفتنة والإثما
وعدت بروح صوفى يرى ماحير الفهما
وذقت الخلد من شفتين ما أحلاهما طعما
أكانت لحظة من لحظات الخلد أم أسمى
وكانت نقلة بالروح أم بالجسم أم بهما
رأيت بها جنان الله قد حلين لى رسما

وأظن أنك لو قرأت قصائده : (أتمنى) و (فتنة) و (حطام) و (كعبة الحسن) و (ردى خيالك) و (فى طريقك) و (الفتنة النائمة) إلى آخر شعر الغزل فى الديوان ستؤمن معى بما ذهبت إليه من أن الشاعر الصيرفى لم يحب ، ولكنك سوف تستمتع بصوره الخلابة وألحانه المرسلة فى غير تعثر على لهاة بلبل صداح ! !

على أن الشاعر الذى لم يحب قد أحبته حواء ! ! وكان هذا الحب « مفاجأة » له حين اكتشفه على غير توقع أو انتظار .

العين توحى
فلا تبـــوحى
فقد تجليت فى وضـــوح
لقـــلبى الخافق الطموح
بعطفك الخالص الصريح
واللحظ فى صمته الفصيح
يغنى عن اللفظ والشروح
فلا تبوحى فالعين توحى

قصيدة تطفر أبياتها بالفرحة والنبض والتهدج ، ولكنك مع كل أولئك تفتقد فيها وجد الحب ولوعته وحرارته ونجواه !!

وحسن كامل الصيرفى الذى عودنا شعره أن يكون أشبه بنجوى الأصدقاء ، يرتفع صوته فى الشعر الاجتماعى والسياسى حتى لتملأ أسماعنا كلماته المجلجلة !! ونحسب أن قصيدته (الجبابره) من أجود ما قيل فى معركة القناة يوم أن غزا (أرسكين) بقواته الضخمة كفر أحمد عبده ، أحد أحياء مدينة السويس ، فأبياتها تقطر زراية لاذعة وحقداً ساحقا ، وتدفقها السريع المتلاحق يوحى بجو المعركة المشحون بالتوتر والمباغتة وتتابع الطلقات !!

مهلا أرسكين العظيم وقائد الظبى الربيب
الغاربات أقل ما يهدى إلى البطل الطروب
المنتشى بدم الشهيد بكف رعديد نخيب
« ومزلزل الكفر » العتيد بجيشه اللجب الرهيب
المستبد بأمره فى غفلة الزمن الجديب
هذى البطولة أين كانت فى الشدائد والخطوب
كنتم جبابرة الحروب أمام جبار الحروب !!

وفى (موكب البعث) يتنفس الشاعر الصعداء حين يذهب الملك المخلوع إلى غير رجعة فى قصيد حار مصور :

زحزحوا الظلمة عنا زحزحوها وارفعوا الغمة عنا واكشفوها
وإلى البحر الذى يقذفنا كل حين بالطواغيت اقذفوها

لكأنى بالشاعر تكاد تزهق أنفاسه تحت ثقل هذه الظلمة المنكرة !! وفى اختيار « زحزحوها » وتكرارها فى صدر البيت الأول تذوق بارع من الشاعر لظلال الكلمات وشحناتها الشعورية .

وقد أشاد الدكتور محمد مندور فى مقال له بالجمهورية عن ديوان : (صدى ونور ودموع) بما يتميز به شعر الصيرفى فى الرثاء من صدق وحرارة وإخلاص ، ونحن نزكى هذه النظرة بصفة عامة ، غير أننا لم نستطع أن ندفع إحساسنا بروح « الواجب » تسرى فى بعض القصائد ، فقصيدته فى رثاء الدكتور زكى مبارك ، ورثاؤه للفنان نجيب الريحانى مثلان لقصائد أخرى أملاها عليه واجب الموقف !! ولهذا جاءت خامدة مصنوعة !!

على أن سائر شعار الرثاء فى (صدى ونور ودموع) زخار بدفق العاطفة . وهذه قصيدته فى رثاء الشاعر على محمود طه ، لحن باك معول !! ينظر الشاعر من حوله فإذا الطريق قد أقفرت من الصحاب !! لقد مضو إلى حيث لا عودة !!

لم يبق لى طريق العمر أحباب ... خلا الطريق وأحباب الرؤى غابوا

كانوا خيالا وكان العيش حلم كسرى ... مضى به قدر للعمر نهاب

شعور مفزع بالوحدة واحساس ممض بالمصير المحتوم !! ثم تتابع ، مخيله الشاعر أيام هذه الصداقة الحبيبة ، وتقف طويلا عند يوم اللقاء الأخير ليتجرع ذكرياته المرة .

كان اللقاء وداعا والحديث صدى ... عن عالم الغيب لم تدركه الباب

نشكوا جراحاتنا والدمع نحبسه ... عن أن يسيل أبى الدمع غلاب

نرجو ونأمل والأقدار ترقبنا ... والموت يحجبه عن وهمنا الباب

ولعل من الطريف أن تجد شاعراً يرثى (حماته) !! وحين قرأت مقدمة الصيرفى لقصيدة (زهرة الخير) حسبتها (مجاملة) من شاعر لزوجته !! ولكننى حين مضيت فى قراءتها أحسست فى كلماتها إشعاعا عميقا صادقا تنفثه الشاعر فى وداع شخص عزيز .

وبعد فما أكثر ما تطالعنا الصحف هذه الأيام بكلام يصر أصحابه على أنه شعر !!

وكان ينبغى أن يظهر مثل ديوان (صدى ونور ودموع) ليقول لهؤلاء أمسكوا عن هذا السخف . . بل هذا هو الشعر . .